

منهجية الإمام السيوطي في البحث اللغوي : أصل اللغة نموذجا

الدكتور علي القاسمي
المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة بالرباط

١ - المشكلة : الخلاف حول كفاءة الإمام السيوطي وأمانته العلمية :

وإذا عدنا إلى الإمام السيوطي نفسه وجدنا أنه يفخر بسعة علمه وتضلعه في مختلف أصناف العلوم، ويقول : « ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفا لها بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية، ومداركها ونقوصها وأجوبتها، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرت على ذلك من فضل الله »^(١).

بل يذهب إلى أبعد من ذلك ويرجو لنفسه أن يكون المبعوث على الملة التاسعة لأنه أفضل علمائها، إذ يقول : « إني ترجيت من نعم الله وفضله، كلام ترجي الغزالى لنفسه، أني المبعوث على هذه الملة التاسعة لأنفرادي عليها بالتحرر في أنواع العلوم »^(٢).

وقد درج الإمام السيوطي أن يذكر في مقدمة كثير من كتبه أنه ابتكر هذا الضرب من التأليف ولم يسبق إليه، فيقول في مقدمة (المزهر في علوم اللغة) : « هذا علم شريف، ابتكرت ترتيبه، واخترعت تنويعه وتبوييه، ... ولم يسبقني إليه سابق، ولا طرق سبيله قبلي طارق... »^(٣).

ومن ناحية أخرى، نجد أن ثلاثة من العلماء المعاصرين للسيوطى عدّته مجرد منتحل يختلس أعمال شيوخه في غفلة من الآخرين ويعزّوها إلى نفسه مع

لم يقع الخلاف ولم يثر الجدل حول واحد من كبار علماء المسلمين كما حصل ذلك بشأن الإمام جلال الدين السيوطي (912-1445 هـ/ 1505 م). فقد دار الجدل بين معاصريه وانقسموا بين أنصار يشيدون به ويعبدونه وخصوم يحملون عليه ويتحاملون، وظلت دائرة الجدل تتسع وتستمر دون قرار حتى يومنا هذا. ولم يتناول الجدل كفاءة السيوطي الفكرية وتمكنه من أدوات البحث الموضوعي فحسب، وإنما انصب كذلك على أمانته العلمية.

فمن ناحية نجد كثيرا من الدارسين من عده أكبر علماء المسلمين في مختلف العصور، فلم تبلغ مؤلفات عالم مسلم ما بلغته مؤلفات السيوطي من حيث عددها^(٤)، وشهرتها وانتشارها في مختلف أنحاء العالم الإسلامي. وما يذكر في هذا الصدد أن أحد المكتبين المعاصرين ألف كتابا يضم أمهات كتب التراث العربي ويعرف بها، فكان مؤلفات السيوطي، قصب السبق المعلى إذ بلغت تسعة كتب في حين لم يتجاوز ما لغيره من عظماء المؤلفين أربعة كتب لا غير^(٥).

على أسئلة محددة هي :

- 1 - هل كان السيوطي متضلعاً في المادة العلمية التي يعالجها ملماً ب مختلف أبعادها وجوانبها؟
- 2 - وهل كان السيوطي مبتكرًا مبدعاً في تأليفه أو مجرد سارق أو متخلل لأعمال غيره وبجهوداتهم؟

والقضية التي وقع اختيارنا عليها هي (أصل اللغة) التي تشكل الفصل الأول من كتاب السيوطي (المزهر في علوم اللغة)^(٩) وتحمل عنوان (معرفة الصحيح ويقال له الثابت والمحفوظ : المسألة الثانية : في بيان واضح اللغة : أتوقف هي ووحي، أم اصطلاح وتواطؤ?).

ويرجع اختيارنا لهذا الموضوع إلى عدة اعتبارات تتعلق بالمؤلف والموقف والموضوع. فعلى الرغم من أن السيوطي عالم مشارك أو باحث موسوعي، كأن يقول اليوم، صنف في مختلف الميادين العلمية بما في ذلك الطب والزلزال^(١٠)، فقد تفوق في علمين أساسين هما : علوم اللغة وعلوم الشرعية^(١١). ولا شك أن علوم اللغة تشكل مقدمة لازمة لعلوم الشرعية. ويدرك أن أول إجازة له في السنة السابعة عشرة من عمره كانت بتدریس اللغة العربية. وإذا ألقينا نظرة برؤية على أشهر كتبه التي حظيت بإقبال الجمهور عليها وازدانت بعدها بطبعاتها نجد أن معظمها في ميدان علوم اللغة، مثل : المزهر في علوم اللغة، والأشباه والنظائر، والاقتراح في علم أصول النحو، وهم المجموع، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. من ذلك كله يمكننا أن نطمئن إلى القول إن تخصص السيوطي الرئيسي يتعلق بعلوم اللغة.

هذا من ناحية المؤلف، أما من ناحية المؤلف فقد وقع اختيارنا على (المزهر في علوم اللغة) لتلمس منهجة السيوطي في البحث، لأن هذا الكتاب هو

تغيير يسير وتبديل ضئيل، ومنهم من حسبه سارقاً يسطر على مجدهات غيره ويضيفها إلى ما سرقه من الآخرين في دار ليس له فيها سوى الجدار. وفي هذا يقول أكبر مناويه، المؤرخ السخاوي : «أخذ من كتب (مكتبة المدرسة) محمودية وغيرها كثيراً من التصانيف التي لا عهد لكثير من العصراء بها، فغير فيها يسراً، وقدّم وأخر، وهوّل في مقدماتها بما يتوجه منه الجاهل شيئاً»^(١٢).

ويقول محقق كتاب (الأشباه والنظائر في النحو) للسيوطى : «ولكن مما يؤخذ على السيوطي شدة مباحثاته بمواقفاته، وحدة ادعائه التي كثيراً ما تبلغ حد التجبع والنفح كما فعل مثلاً في مقدمة كتابه (الاقتراح في علم أصول النحو) عندما زعم أن كتابه لم تسمح قريحة بمثاله، ولم ينسج ناسخ على متواله، في علم لم يسبق أحد إلى ترتيبه، مع أن كتابه قد تضمن كتابة ابن الأنباري (لمع الأدلة) والإغراب في جدل الأعراب) إذ نقل عن (لمع الأدلة) ثمانية عشر فصلاً من أصل ثلاثين، إضافة إلى ما نقله عن (الخصائص) لابن جنبي»^(١٣).

وأمام هذه المعطيات المتناقضة في فحواها المتضاربة في مدلولها يجد الدارس نفسه في حيرة كبيرة، ويسأله بالحاف محق : هل كان الإمام السيوطي متمكناً من أدوات بحثه أم ناقلاً عن غيره فحسب؟

2 - هدف الدراسة وحدودها :

ترمي هذه الدراسة إلى الإجابة على السؤال المطروح وتزويد القارئ بمؤشرات تساعد على حل المشكلة القائمة. ولكي تتأكد من صحة دعوى أنصار السيوطي ومزاعم مناويه بصورة موضوعية سنعمل إلى فحص إحدى القضايا الرئيسية التي عالجها السيوطي في أحد مصنفاته الذائعة الصيت، واستخلاص منهجته في البحث للوصول إلى الإجابة

الإنساني، لا يمكن أن تبرز إلى الوجود ما لم يسبقها ظهور لغة تسهل إشاعتها بين أفراد الجماعة وتيسّر نقلها من جيل إلى جيل وتعمل على تراكمها الكمي والتوعي. وهذا فإن معرفتنا بأصل اللغة وتطورها ضرورة لازمة لمعرفتنا لنشأة الثقافة ونموها في المجتمعات الإنسانية.

ولذا ما علمنا أن اللغة قديمة قدم الإنسان، وأنها الخاصية الوحيدة التي تميز الإنسان عن باقي الحيوان على الصعيد البيولوجي، تأكّد لنا أن معرفتنا لماهية اللغة وأصلها ضرورة من ضرورات البحث في ماهية الإنسان نفسه. ولهذا السبب نجد أن علم اللغة الحديث في الغرب قد تطور كثيراً على أيدي علماء الأنثروبولوجيا الذين كانوا ينكرون على دراسة الإنسان أولاً وبالذات.

وخلالص القول إن معرفة أصل اللغة وطبيعتها تساعدنا كثيراً على فهم الإنسان : ذاته وفكره وثقافته. وعليه فإن مسألة (أصل اللغة) تحمل مكانة خاصة في الدراسات الإنسانية.

٤ - أصل اللغة في الأدييات الغربية :

للوقوف على جهود اللغويين العرب المسلمين وسمو أفكارهم المتعلقة ببحث أصل اللغة كما عرضه السيوطي ينبغي التعرف على موقف العلم الحديث في الغرب من هذه المسألة وما توصل إليه من نتائج. وعلى الرغم من أنه لا مجال للمقارنة بسبب الفارق الزمني الشاسع الذي ينبع على الأقل عشر قرناً، سيتبين لنا أن اللسانين المسلمين بلغوا شأوا عالياً في دراسة الموضوع.

وقبل عرض وجهة النظر الغربية المعاصرة في أصل اللغة، ينبغي الإشارة إلى أن الاهتمام بدرس هذه المسألة بصورة موضوعية علمية في الغرب نشأ في القرن التاسع عشر الذي شهد الثورة الصناعية وحركة البحث العلمي في أوروبا. وما شجع اللسانين

أشهر مصنفاته على الإطلاق، باتفاق جميع دارسي السيوطي.

أما الموضوع الذي اختراه من بين موضوعات هذا الكتاب فليس لأنه أو لها فحسب ولكنه كذلك من الأساسيات، أو كما يسميه السيوطي بـ «الثابت والمحفوظ». وتدلّنا الدراسات المستقبلية المعاصرة على أن معرفة أصل الشيء وماضيه تساعدنا على فهم حاضره وتنبؤ بتوجهاته في المستقبل، فإذا كانا لأصل اللغة وطبيعتها يساعدنا على اختيار أسلوب التعامل مع هذه الظاهرة بشتى جوانبها الصوتية والتركيبية والدلالية.

٣ - لماذا البحث في أصل اللغة ؟

اللغة والفكر وجهاً لقطعة واحدة تتشكل من أمثلها عملية الاتصال والتواصل، والتلازم بين الوجهين ضرورة حتمية لإتمام عملية الاتصال والتواصل تلك. وهذا الارتباط بين اللغة والفكر يجعل من السير علينا فهم أحدهما إذا توصلنا إلى فهم العنصر الآخر. ولما كان فهم الفكر غير الملموس عسيراً توجّه اهتمام كثير من الباحثين إلى فهم اللغة المسموعة المحسوسة سبيلاً إلى إدراك كنه الفكر. وإضافة إلى ذلك فإن التأثير متداول بين الفكر واللغة. فإذا كان الفكر يشكل مادة عملية الاتصال ومضمونها فإن اللغة هي الواقع الذي تُصب فيه تلك المادة. ولا بد من أن تتأثر المادة في وضعها الأخير بشكل الواقع الذي يستوعبها وبقوابه التي تضمنها. ومن هنا يكاد يتفق الباحثون في فلسفة اللغة على تأثير التراكيب اللغوية في البنية الفكرية. ولهذا كله فإن البحث في أصل اللغة وطبيعتها وكيفية أدائها لوظيفتها يساعدنا على فهم التفكير الإنساني ونموه وطرائقه وتوجهاته.

ومن جهة ثانية، فإن الثقافة التي يمكن النظر إليها على أنها أنماط متوارثة متراكمة من السلوك

أو الطين أو البردي أو المواد الأخرى، فإنه وقف عاجزاً عن تطور اللغة المنطقية. ولللغة - كما هو معروف - تعني الكلام وما الكتابة إلا تصوير للكلام الذي سبق الكتابة بآلاف السنين. فاللغة قديمة جداً وجدت بوجود الإنسان، أما الكتابة فلا يتجاوز عمرها بضعة آلاف من السنين. ولما كانت اللغة المنطقية لم تترك أثراً مادياً يمكن للعلماء من دراسته والتوصيل إلى استنتاجات علمية، فإن علم الآثار يقف عاجزاً عن إمدادنا بالمعلومات حول تطور لغة الإنسان قبل اختراع الكتابة.

وظن علماء الإنسان (علماء الأنثروبولوجيا) أن لغات المجتمعات البدائية ستكون هي الأخرى في حالة بدائية، وإذاً سيجري هؤلاء العلماء دراسة مقارنة بين هذه اللغات البدائية واللغات المتطورة ليقفووا على كيفية تطور اللغة وتوجهاته. غير أن بحثهم دلهم على أن لغات الشعوب البدائية ليست في حالة بدائية بل لا تقل تطوراً عن لغات الحضارات الكبيرة. ونتيجة لذلك تأكّد لعلماء الأنثروبولوجيا أن هذه السبيل لا تؤدي إلى النتيجة المطلوبة.

وفي القرن التاسع عشر طور علماء اللغة منهجية تاريخية لدراسة التطور اللغوي على غرار منهجيات علماء التاريخ الطبيعي الخاصة بتطور الأحياء وأصل الإنسان. وبفضل تلك المنهجية استطاع اللسانيون أن يتوصلاً مثلاً إلى وجود قرابة بين معظم لغات أوروبا والشرق الأدنى وشمال القارة الهندية للدرجة تدعى إلى القول إن هذه اللغات قد انحدرت من لغة قديمة لم تعد على قيد الحياة، واستطاعوا إعادة تركيب تلك اللغة الأم. وأدى نجاح هذه المنهجية إلى اعتقاد عدد من اللغويين أن باستطاعتهم التوصل إلى اللغة أو اللغات البدائية التي تطورت منها لغاتنا الحية بنفس الطريقة. ولكن البحث الموضوعي دلَّ على عدم ملائمة منهجهية إعادة البناء، اللسانية لهدف التوصل إلى أصل اللغة^(١).

الغربيين على البحث عن أصل اللغة النظريات التي توصل إليها اثنان من علماء التاريخ الطبيعي البريطانيين عن أصل الإنسان هما تشارلز روبرت دارون (1809-1882) صاحب نظرية التطور والارتقاء عن طريق الانتخاب الطبيعي التي بسطها في كتابه (أصل الأنواع)^(٢) الذي صدر في لندن عام 1859، وألفريد رسل والاس (1823-1913) الذي توصل مستقلاً إلى نظرية شبيهة بنظرية دارون ونشرها في وقت واحد تقريباً، عام 1858، علمًا بأن هذه النظريات قد ثبت بطلانها علمياً في وقت لاحق.

وكان من الذين اهتموا بموضوع أصل اللغة العالم اللغوي المستشرق الألماني ماكس مولر (1823-1900)، ابن الشاعر الغنائي الألماني فلهلم ماكس مولر. وكان مولر الابن قد انتقل إلى بريطانيا واستقر فيها وألقى سلسلة من المحاضرات عن علم اللغة في جامعة أكسفورد في الفترة من 1861-1863. كما لقي موضوع أصل اللغة اهتماماً من قبل المفكر الفرنسي أرنست رينان (1823-1892)^(٣). ولللغوي الأمريكي وليم دوايت وتنى (1827-1894)^(٤)، ولللغوي الدنماركي يسبرسن (1860-1943)^(٥).

١-٤ صعوبات البحث في أصل اللغة :

للوصول إلى معرفة علمية تتناول أصل اللغة، طرق الباحثون الغربيون ثلاثة أبواب رئيسية هي : علم الآثار، وعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، وعلم اللغة. ولكن أيًا منها لم يفض إلى المعرفة المنشودة.

يُعد علم الآثار أحد الوسائل الرئيسية في التوفير على المعلومات عن الإنسان وبيئته ونشاطه في عصور ما قبل التاريخ، وذلك بدراسة الآثار المتبقية من رفات الإنسان، (جمجمته وهيكله وعظامه، إلخ) وأدواته إلخ. وإذا كان علم الآثار قد أفادنا جداً في التعرف على تطور الكتابة واللغات المكتوبة حيث استقى المعلومات من السجلات المكتوبة على الحجر

2.4 النظريات الغيرية حول أصول اللغة خلال القرن التاسع عشر :

إن فشل الباحثين الغربيين في التوصل إلى معرفة أصل اللغة عن طريق علم الآثار أو علم الأنثروبولوجيا أو علم اللغة جعلهم يلجأون إلى أنواع من الحدس والتخيين والافتراض قائمة على التأمل والخيال والظن لوضع نظريات عن طبيعة اللغة وأصواتها. ونتيجة لذلك ظهرت نظريات متعددة حول أصل اللغة في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين هي أقرب إلى الخيال منها إلى العلم. وفي طليعة هذه النظريات أربع اطلقـت عليها أسماء ساخرة إشارة إلى عدم علميتها وموضوعيتها⁽¹⁶⁾:

(1) نظرية الباو واو Bow-wow

زعم بعض الباحثين أن اللغة نشأت نتيجة لمحاولات الإنسان البدائي محاكاة أصوات الطبيعة وأصوات الحيوانات، كما هو الحال عندما يسمى الطفل الكلب (عووو) أو القطة (ميو ميو) أو العنزة (ماء ماء). ولا بد أن تلك المحاكاة كانت وراء عدد معين من الألفاظ، ولكن يصعب تطبيق هذه النظرية على اللغة برمتها. لأن ألفاظ المحاكاة تتأثر بالنظام الصوتي لكل لغة، فيما يسمع الطفل العربي نباح الكلب على نحو (عـو عـو) يسمعه الطفل الإنجليزي على أنه (بـاو وـاو) ومن هنا جاء اسم هذه النظرية.

(2) نظرية البوه بوه Pooh-pooh

وزعم باحثون آخرون إن صرخات الإنسان البدائي الغريزية التي يطلقها بصورة لا إرادية عند شعوره بالألم أو الفرح أو الحزن أو غيره من الانفعالات مثل (آه) و(أوه) هي التي تطورت تدريجياً إلى لغة متكاملة. وقد أيد اللغوي الأمريكي وليم دوايت وتنى هذه النظرية في كتابه المشهور عن حياة اللغة ونموها وعمل ذلك بأن رغبة الإنسان

البدائي العارمة في التواصل هي التي ساعدته على تحويل الأصوات الغريزية إلى وحدات لغوية. ويعتقد وتنى نظرية المحاكاة السالفة الذكر لأننا إذا نظرنا إلى الكلمات التي وصفت نتيجة المحاكاة في عدد من اللغات نجد أنها تختلف من لغة إلى لغة لتأثيرها بالنظام الصوتي لكل لغة⁽¹⁷⁾.

(3) نظرية الدنفع دونغ Ding-dong

وتكتسي هذه النظرية جلباباً يبدو علمياً أو فلسفياً في ظاهره، وأول من عرض هذه النظرية بالتفصيل في الغرب الشاعر والفيلسوف الألماني جوهان هردر (1744-1803) في كتابه الذي نشره عام 1772 تحت عنوان (بحوث في نشأة اللغة)، وقد وجدت في ماكس مولر مدافعاً صلباً عنها. وتزعم هذه النظرية أن الإنسان مزود بغريزة التعبير الطبيعي عن الانفعالات وأن الأصوات الإلإرادية التي أطلقها الإنسان البدائي كرد فعل لتأثير الظواهر الطبيعية عليه، هي التي أصبحت بمرور الزمن تدل على تلك الظواهر الطبيعية أو الأفعال التي أدت إلى انبعاثها.

(4) نظرية الغوغو Goo-goo

وتدعي هذه النظرية أن لغة الإنسان تطورت من صرخات الإنسان البدائي الشبيهة بصيحات الحيوانات، وتطورت من كل صيحة من تلك الصيحات ألفاظ تعبّر عن معانٍ مختلفة متقاربة كـما يشق من الجذر الثلاثي مثلاً ألفاظ عديدة لمعانٍ مختلفة⁽¹⁸⁾.

وعلى الرغم من إدراك الباحثين أن الوصول إلى معرفة يقينية حول أصل اللغة ضرب من ضروب المستحيل، وعلى الرغم من تأكدهم من أن النظريات التي وضعت عن أصل اللغة هي مجرد تبريرات في التأمل والخيال، فإن علماء اللغة والأنثروبولوجيا استمروا في الكتابة عن الموضوع.

٤- النظريات الغريبة عن أصل اللغة في القرن العشرين :

تأثير البحث عن أصل اللغة في الغرب بنظريات النشوء والتطور خلال القرن العشرين ومن أهم النظريات حول أصل اللغة ما يلي :

١-٣-٤ أصل اللغة وتطور لغة الطفل :

اخذ كثير من الباحثين تطور لغة الطفل أساساً لنظرياتهم حول أصل لغة الإنسان وتطورها. فقالوا إن الطفل يبدأ بادئ ذي بدء بإطلاق صراغ وأصوات مبهمة، وفي مرحلة لاحقة تكثر لديه أصوات المد (اللين)، وبعد ذلك يبلغ مرحلة التقليد اللغوي. وهكذا فإن تطور اللغة مرّ بثلاث مراحل: مرحلة الصراغ المعبر عن الانفعالات كالضحك والبكاء، ثم ظهرت أصوات اللين في اللغة الإنسانية، ثم ظهرت المقاطع التي تشمل على الأصوات الساكة وأصوات اللين في آن واحد، وبعدها بزرت الكلمات المكونة من المقاطع، وبعد ذلك ظهرت مرحلة الوضع والأصطلاح التي تمثل آخر مرحلة من مراحل التمويسي و فيها يضع الإنسان عن وعي مفردات وتعابير تعكس ما يستجد من تجارب في حياته وما يبتكر من مخترعات في بيته^(٢٩).

٢-٣-٤ نظرية تريكر :

في منتصف القرن العشرين كتب اللغوي الأمريكي تريكر مادة (اللغة) في الموسوعة البريطانية، وخصص موضوع أصل اللغة بفقرة من المادة أكد في بدايتها جهل علماء اللغة بأصولها وعدم اتفاقهم على الافتراضات الموجودة. ويقدم هو نفسه بافتراض يشارك فيه القائلين بالتطور اللغوي على غرار نظرية النشوء والارتفاع لدارون. فيقول بوجود كائنات بشرية بدائية قبل مليون أو مليون ونصف المليون سنة. وكانت تلك الكائنات لا تعرف الكلام، وقد تطورت بعد ذلك فأخذت تستعمل أدوات بسيطة

(كالعصي مثلاً لدفع أو سحب الأشياء، والأحجار بمثابة أسلحة، كما تفعل القردة اليوم). وبعد ذلك، وفي مكان أو أكثر خطر يمال فرد أو عدّة أفراد من تلك الكائنات تميز فعل من الأفعال أو حجر من الأحجار أو موضع من الموضع بأصوات متباينة، وقد تكررت تلك الأصوات دون تغيير في كل مرة حتى أخذت بقية أفراد المجموعة تعرف عليها بوصفها رموزاً للتواصل.

ولكن تريكر يقدم ذلك على أنه تصور ممكن لنشوء اللغة على ذلك النحو، ولكنه يضيف أنه ما من أحد يستطيع أن يجزم متى حصل ذلك أو كم مرة حصل، أو إذا كان قد حصل على الإطلاق.^(٣٠)

٣-٣-٤ نظرية هوكت وآشر :

في عام ١٩٦٤ نشر الباحثان الأميركيان هوكت وآشر مقالاً بعنوان «الثورة الإنسانية» في مجلة (الأثربولوجيا المعاصرة) الأمريكية^(٣١). وقد هلل كثير من الدارسين ووصفوها بأنها نظرية علمية موضوعية عن أصل اللغة. وتبني هذه النظرية أساساً على ثلاثة أنواع من المعطيات والنظريات : أولاً، نظريات علماء التاريخ الطبيعي عن أصل الإنسان، وثانياً، التحليل اللساني الحديث للغة الإنسان، وثالثاً ما توصل إليه الباحثون من وصف لنظام الاتصال الحيواني (أو بعبارة أخرى لغة الحيوان). وسرى فيما بعد أن النظرية قامت على بعض المعطيات العلمية والموضوعية ولكنها توصلت إلى استنتاجات تمت بصلة إلى الخيال والافتراض أكثر من صلتها بتلك المعطيات العلمية وبعبارة أخرى أن النظرية تشتمل على حلقات مفقودة.

ينطلق هوكت وآشر من نظرية التطور والارتفاع ويتخذانها أساساً لنظريتهم في التطور اللغوي. إذ أن بعض علماء الآثار والتاريخ الطبيعي الغربيين يدعون أن تقييماتهم في مناطق مختلفة في آسيا

بعضها يتم اكتسابه بالتعلم، ولكن معظمها أصيل يتم إنتاجه على بُعد قوالب بنوية تشتهر في استعمالها جماعة الناطقين. وملكة اللغة لا تتمكن الإنسان من إنتاج العبارات الجديدة فيها، وإنما تتمكنه كذلك من فهم العبارات الجديدة التي لم يسمع بها من قبل.

(2) الإلحاد :

وتعني هذه الخاصية أن الإنسان يستطيع أن يُحَل لغته محل أحداث وأشياء ليست نصب عينيه، فيتحدث عن وقائع وذوات بعيدة عنه زمانياً ومكانياً، ويصف باللغة أموراً وقعت في الماضي السحيق في مكان آخر، أو أموراً يتخيّل وقوعها في المستقبل البعيد، في حين أن لغة الحيوان تقتصر على التعبير عن أمور آنية تقع تحت بصر الحيوان وسمعه في اللحظة ذاتها.

(3) ازدواجية النسق :

تألف لغة الإنسان من وحدات صوتية أساسية (فونيمات) لا معنى لها بمفردها ولكنها تكون كلمات وعبارات ذات معانٍ. ومع أن هذه الوحدات الصوتية لا معنى لها بذاتها فإن أي تغيير يطرأ عليها داخل الكلمات يؤدي إلى تغيير المعنى أو الإلحاد به، كما هو الحال في الوحدتين الصوتيتين الأساسيةين /أ/ أو /ك/ في العبارتين (عرفت ما بقلبك) و(عرفت ما بكلبك). ومن ناحية أخرى فإن لغة الإنسان تتألف في الوقت نفسه من وحدات صرفية (مورفيمات) يؤثر تغييرها في معنى الجمل مثل الوحدتين الصرفيتين [كـ] و[كـ] في العبارتين (هذا كلبك) و(هذا كلبـ). وهذه الخاصية التي تمكنا من التمييز بين معاني الوحدات الصرفية لاختلاف الوحدات الصوتية المكونة لها تسمى (ازدواجية النسق)، وبها تستطيع اللغة أن توفر على آلاف الوحدات الصرفية على الرغم من أن الوحدات الصوتية الأساسية في آية لغة لا تتجاوز الخمسين.

وأفريقياً دلتهم على أن نوعاً من الكائنات الشبيهة بالإنسان سموه (HOMINOID) قد وجد قبل مليوني سنة، وكانت هذه الكائنات تختلف عن الإنسان الحديث في بعض الصفات مثل حجم المخ، ومع ذلك فقد كانت أكثر تقدماً من القردة الموجودة حالياً. وأخذت تلك الكائنات في التطور حتى ظهر نوع أفضل منها قبل مليون سنة أطلقوا عليه (HOMINID). ومع هذا النوع ظهرت بعض أنماط السلوك المتداولة القابلة للتراكم التي يمكن أن تسمى بـ (ثقافة). وكان هذا النوع من الكائنات القرية من الإنسان يستخدم نظام اتصال لغوي أقرب إلى صيحات الحيوان منه إلى لغة الإنسان.

وبعد أن يقبل هوكت وأشار هذا الفرض القائل بأن لغة تلك الكائنات البشرية كانت مثل صيحات الحيوان، وأنها تطورت تدريجياً إلى لغة الإنسان الحاضر، يقرران أن معرفة هذا التطور يجب أن تبني على مقارنة صيحات الحيوان بلغة الإنسان، ومعرفة الفروق الأساسية بينهما، ثم وضع نظرية تبين لنا كيف تطورت تلك الصيحات الحيوانية إلى لغة إنسانية.

ولما كانت الأبحاث العلمية قد حققت تقدماً ملحوظاً في اللسانيات وفي ميدان نظم الاتصال الحيواني، فقد تمكّن هوكت وأشار من تحديد الفروق بين لغة الإنسان ولغة الحيوان في أربع قضايا هي⁽²²⁾ :

(1) الإنتاجية :

إن لغة الحيوان نظام اتصال مغلق في حين أن لغة الإنسان نظام اتصال مفتوح، بمعنى أن لغة الحيوان تتألف من عدد محدود من الصيحات كل صيحة تدل على موقف معين مثل «وجود الخطر» أو «وجود الطعام» وما إلى ذلك، أما لغة الإنسان فهي نظام قادر على إنتاج عدد لا محدود من العبارات،

تُسمع ليس ككل وإنما في نطاق مكوناتها الصوتية. أما من حيث النطق فأصبح الاهتمام منصباً لا على إنتاج الوحدة شبه الصرفية كاملة، وإنما على نطق مكوناتها الصوتية الصغيرة بعنابة أكبر تساعد على تمييز هذه المكونات الصوتية بعضها عن بعض. وعندما حدث ذلك التطور تحولت الوحدات شبه الصرفية إلى وحدات صرفية حقيقة، بمعنى وحدات كلامية ذات معنى (مورفيمات) مكونة من وحدات صوتية لا معنى لها (فونيمات). ولم ينظر الباحثان إلى هذا التطور بوصفه حلول لغة بشرية محل لغة حيوانية، وإنما اعتبراه بمثابة نمو نظام اتصال متقدم (اللغة) في نطاق نظام اتصال بدائي سابق له (الصيحات)، وهذا فإن بعض مواصفات النظام السابق واصلت وجودها في النظام الجديد، كما يحمل بعض الناطقين باللغة حالياً مط كلمة من الكلمات تماماً كما يطيل حيوان ما صيحة من صيحياته⁽²²⁾.

إن نظرية هوكت وأشار عن التطور اللغوي تستند إلى ثلاثة أركان :

أ - نظرية النشوء والارتقاء لدارون وجماعته من علماء التاريخ الطبيعي التي تزعم تطور أنواع حيوانية علياً إلى كائنات شبه بشرية، وتطور هذه الأخيرة إلى الإنسان الحديث.

ب - نتائج أبحاث اللغة حول خصائص لغة الإنسان ولغة الحيوان.

ج - فرضيات حول تطور الصيحات الحيوانية إلى لغة إنسانية متكاملة.

ومعروف أن نظرية النشوء والارتقاء كا

بُسطت في كتاب دارون المنشور عام 1859 قد تعرضت لنقد شديد من لدن علماء طبيعيين عاصروا دارون أو ظهروا بعده وتوفرت لديهم معطيات جديدة. وانصب النقد أساساً على عدم تمييز النظرية بين الصفات المكتسبة والجينات التوارثية. وقد أثبت هؤلاء العلماء أن نظرية دارون تشتمل على حلقات

أما لغة الحيوان فإنها تتألف من صيحات تختلف كل واحدة منها عن الأخرى من حيث الصوت والمدلول، ولا يمكن تجزيء الصيحة الواحدة إلى وحدات يؤدي تغييرها إلى تغير في المعنى.

(4) الاكتساب :

وتعني هذه الخاصية المميزة للغة الإنسان أنها تنتقل من الكبار إلى الصغار بالتعليم والتعلم، وليس الحال كذلك بالنسبة للغة الحيوان التي تبدو وكأنها تنتقل بالجينات التوارثية. فالأطفال لا لغة لهم عند الولادة ولكنهم يكتسبونها تدريجياً بالسماع المتكرر واستنباط معناها من المقام. وبعد ذلك يتعلمون تدريجياً كيف تتضافر الوحدات الصرفية والوحدات الصوتية على بناء عبارات ذات معانٍ مختلفة ضمن نظام اللغة البنبوبي، ومن ثم تتكون لديهم القدرة على توليد عبارات مختلفة عن العبارات التي سمعوها من قبل.

وبعد أن حدد الباحثان الأميركييان هوكت وأشر الفروق بين لغة الإنسان ولغة الحيوان بصورة موضوعية على ضوء ما توصل إليه علم اللغة في العصر الحاضر، افترضاً أن مسألة تطور اللغة يمكن أن تطرح على الوجه التالي : ما هي التطورات التي أدت إلى أن يصبح نظام الصيحات نظاماً لغوياً له خصائص الإنتاجية والإحلال والنحو المزدوج والاكتساب؟ إن نمو هذه الخصائص اللغوية في عدد من أنظمة الصيحات شبه الحيوانية هو الذي أدى إلى تحويلها إلى لغات بشرية.

وذهب العمالان الأميركييان إلى أن أنظمة الصيحات أخذت في التطور تدريجياً بحيث غدت أكثر تعقيداً وأكثر مرونة، لما لذلك من أثر إيجابي على حفظ الجماعة وبقائها. وافتراضاً أنه مع ظهور كائنات شبه بشرية أكثر تقدماً قبل مليون سنة تقريباً فإن الوحدات شبه الصرفية (أو الصيحات) أصبحت

لتوقف بين المدرستين وهكذا⁽²⁵⁾.

وفي مسألة أصل اللغة نجد نظريات متعددة يمكن تلخيصها على الوجه التالي :

١.٥ اللغة توقف ووحي :

لقد نشأت الدراسات اللغوية العربية في ظلال القرآن الكريم إذ كان هدفها الرئيس فهم نصوصه التي تمثل المصدر الأساسي للشريعة الإسلامية. وهذا فقد كان طبيعياً أن يحاول بعض اللغويين الذين كانوا يبحثون عن أصل اللغة أن يجدوا ضالتهم في القرآن الكريم. وقد عثروا على دليلهم في الآية الكريمة **﴿وَعِلْمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾** ثم عرضهم على الملائكة فقال **أَبْشِرُنِي بِأَسْمَاءِ هُؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾**⁽²⁶⁾ واستدلوا منها على أن الله تعالى قد خلق اللغة كما خلق كل شيء آخر، وأنه سبحانه وتعالى أوحى بها إلى آدم. كما احتجوا بالآية الكريمة **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقُ الْجِنِّ وَالْإِنْسَانِ﴾**⁽²⁷⁾.

وكان على أصحاب هذا الرأي أن يردوا على عدد من الاعتراضات على تفسير الآية الكريمة الأولى على هذا الشكل. وكان أول الاعتراضات أن اللغة لا تتألف من أسماء فقط وإنما من أسماء وأفعال وحروف. فردوا قائلين إن الأسماء تمتاز على غيرها بالقوة الأولية ولا يقوم الكلام المقيد بدونها ويمكن أن يشار بها إلى اللغة برمتها من باب إطلاق الجزء على الكل. واعتراض بعضهم على تفسير «الأسماء» الواردة في الآية بـ«أسماء الأشياء»، وقالوا إنها أسماء الملائكة أو أسماء ذرية آدم ولا تدل على الأشياء ولو كانت كذلك لكان تتممة الآية «عرضها أو عرضهن» لأن العرب تقول لما يعقل «عرضهم» ولما لا يعقل «عرضها أو عرضهن». فرد أهل التوقف قائلين إن الأسماء تشير إلى ما يعقل وما لا يعقل فاكتفى بالأول من باب التغليب⁽²⁸⁾.

مفودة وقطعوا باستحالة وراثة الصفات المكتسبة. وحتى أصحاب ما يسمى بالداروينية الجديدة الذين يؤمنون بارتقاء الأنواع ذهبوا إلى أن التطور لم يحصل بشكل خططي وإنما بشكل متواز أي أن الأحياء لم تتطور من أصل واحد مشترك وإنما تطور كل نوع من الأنواع الحيوانية على حدة ولم يتحول إلى النوع الآخر⁽²⁹⁾.

وإذا كنا نطمئن إلى نتائج علم اللغة الحديث القائمة على الملاحظة والتحليل الموضوعي للتوصيل إلى خصائص لغة الإنسان وكيف تختلف عن صيغات الحيوان، فإننا يمكن أن نقول بشيء من الاطمئنان كذلك إن تحول تلك الصيغات إلى لغة بشرية بالكيفية التي وصفها هوكت وآشر هو مجرد افتراض قائم على الخيال والحدس أكثر من قيامه على معطيات علمية موضوعية، ناهيك باستناده من حيث الأساس إلى نظرية التطور والنشوء.

٥ - أصل اللغة في التراث العربي الإسلامي :

الشائع بين الدارسين أن التراث اللساني العربي تنازعه فرقان : إحداهما تقول بأن اللغة توقف ووحي من الله، والثانية تقول بأنها اصطلاح وتواطؤ بين الناس. وهذا نجد الإمام السيوطي يعنيون الفصل الخالص بهذه المسألة في كتابه (المزهر في علوم اللغة) بالشكل التالي : «في بيان واضح اللغة : توقف هي ووحي، أم اصطلاح وتواطؤ؟». ولكن من يمعن النظر فيما كتب عن الموضوع، يجد أن هناك فرقة ثالثة حاولت أن توقف بين الفرقتين المذكورتين. وهذه سمة من سمات الفكر العربي الإسلامي يمكن أن نسميها بـ«الوسطية». وتتجلى هذه الوسطية في الحالات الفكرية الأخرى ففي الفقه مثلاً لم يقتصر الأمر على أهل الحديث وأهل الرأي وإنما ظهر مذهب يوفق بين المذهبين. وفي النحو لم يتوقف الأمر عند مدرستي البصرة والковفة وإنما ظهرت مدرسة بغداد

إلى غيرها، فإذا كانت مجموعة من الناس اتفقت على وضع أسماء لسميات فإن أفراد هذه المجموعة يمكنهم أن يتفقوا على إبدال أسماء جديدة بالأسماء القديمة فيقولوا : «الذى اسمه إنسان فليجعل مكانه (مرد) ، والذي اسمه رأس فليجعل مكانه (سر) وعلى هذا بقية الكلام». ^(٤٠)

ولكى يفند هذا الفريق حجج خصومه القائلين بأن اللغة وحي وتوقيف من الله، ذهب إلى أنه سبحانه وتعالى لا يمكن أن يواضع أحداً على شيء لأن الموضعية تحتاج إلى إيماء وإشارة بالجوارح إلى الأشياء المراد تسميتها وبسبحانه لا جوارح له. أي أن هذا الفريق يصادر على المطلوب كما يقول المنطقيون، بمعنى أن يعتبر الموضعية أمر مفروغ منه ثم ينفيها عن الله سبحانه وتعالى. ومن ناحية أخرى فإن التواضع يستلزم قدرة المتواضعين على الكلام أي وجود اللغة.

3- اللغة توقيف وأصطلاح :

وحاول بعضهم أن يوفّق بين الرأيين فذهب إلى أنه يمكن تأويل آية (وعلم آدم الأسماء كلها) ^(٤١) بأنه سبحانه وتعالى «أقدر آدم على أن يواضع عليها» ^(٤٢) أي أنه وله القدرة أو الملكة على الكلام وتعلم اللغة. وهذه الملكة هي التي تنقص الحيوان، ولما كان الأصطلاح يحتاج عقلاً إلى لغة للتعبير عنه فإن بعضهم يرى أن بعض اللغة في البداية كان بوضع الله تعالى والباقي بوضع الناس، أي أن الابتداء من الله والتنتهى من الناس، وهو رأي أبي إسحاق الأسفرياني ^(٤٣).

4- اللغة محاكاة لأصوات الطبيعة :

وقد ذهب بعضهم إلى أن اللغة نشأت من محاكاة الإنسان لأصوات الطبيعة وما فيها من نبات وحيوان مثل المزيم، والدوبي، والخربير، والخفيف، والصهيل. ويرتب بعضهم على هذا الرأي مناسبة الأصوات للمعاني، أو بعبارة أخرى الدلالة الذاتية

وإضافة إلى ذلك، كان على القائلين بالتوقيف أن يفسروا ما إذا كان سبحانه وتعالى قد علم آدم أسماء جميع المخلوقات بلغة واحدة أم بجميع اللغات، فقالوا إنه سبحانه وتعالى علم آدم الأسماء بجميع اللغات فكان آدم وأولاده يتكلمون بها ثم تفرق أبناؤه في الأرض فاختصت كل بقعة منها بلغة من اللغات. وبهذا فسروا تنوع اللغات واختلافها. وكان عليهم كذلك أن يفسروا ظاهرة التمو اللغوی فقالوا إن اللغة لم يوح بها دفعه واحدة بل «وقف الله عز وجل آدم عليه السلام على ما شاء أن يعلمه منها، مما احتاج إلى علمه في زمانه... ثم علم الله بعد آدم من الأنبياء - نبياً نبياً - ما شاء أن يعلمه...» ^(٤٤) وهذا يعني أن هؤلاء اللغويين قد اهتدوا إلى ملاحظة ظاهرة استجابة اللغة للتعبير عن حاجات الناطقين بها التي تنمو بمرور الزمن، فتنمو اللغة معها.

2-5 اللغة اصطلاح :

ذهب بعض اللغويين العرب إلى أن أصل اللغة تواظط وأصطلاح بين جماعة الناطقين بها، ويلخص ابن جنى وجهة نظرهم - ولو أنه لم يقطع بصحتها - في كتابه (الخصائص) بقوله : «إن أصل اللغة لابد فيه من الموضعية، قالوا : وذلك بأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً، فيحتاجوا إلى الإبارة عن الأشياء والمعلومات، فيضعوا لكل واحد منها سيمةً ولفظاً، إذا ذكر عرف به ما مُسمى، يتمتاز عن غيره، ولি�ُغنى بذلك عن إحضاره إلى مرآة العين، فيكون ذلك أقرب وأخف وأسهل من تكليف إحضاره لبلوغ الغرض في إبارة حاله، بل قد يُحتاج في كثير من الأحوال إلى ذكر ما لا يمكن إحضاره، ولا إدناوته كالفاني، وحال اجتماع الضدين على المثل الواحد...» ^(٤٥).

وكان على أصحاب هذا الرأي أولاً أن يفسروا تعدد اللغات وتتنوعها، فقالوا بإمكان انتقال الموضعية

فابن جنی لم يقطع برأي لعدم توفر القناعة العلمية لديه، وهذا علق محقق كتاب الشخصيات، الدكتور محمد علي النجاشي بقوله «يبدو من هذا أن مذهب ابن جنی في هذا البحث الوقف، فتراء لا يجزم بأحد الرأيين : الاصطلاح والتوصيف، وقد صرخ بهذا ابن الطيب في شرح الاقتراح»⁽³³⁾.

٦- منهجة الإمام السيوطي في بحث أصل اللغة :

١٦ قبل كل شيء يضع الإمام السيوطي عنواناً للموضوع يحاول أن يجمع فيه آراء المدرستين الفكرتين الرئيستين في الموضوع. وهذا العنوان الذي وضعه الإمام السيوطي يتفق في مضمونه مع العناوين التي صاغها اللغويون السابقون الذين رجعوا إلى أعمالهم، ولكنه مختلف في صياغته أو شكله عنها، لأنه يحاول أن يجعل ذلك العنوان جاماً شاملاً. وهكذا يأتي العنوان على الوجه التالي : «في بيان واضع اللغة : أتوقف هي ووحى، أم اصطلاح وتواظؤ؟»⁽³⁴⁾ وهذا العنوان مختلف عن عنوان ابن فارس وابن جنی، فقد ورد عنوان ابن فارس في (الصاجي) كما يلي : «باب القول على لغة العرب : أتوقف، أم اصطلاح؟»⁽³⁵⁾ وجاء عنوان ابن جنی في (الشخصيات) كالتالي : «باب القول على أصل اللغة : أإلهام هي أم اصطلاح؟»⁽³⁶⁾.

وإذا قارنا بين العناوين الثلاثة لوجدنا التقارب والتشابه قائماً بين عنوان ابن فارس وابن جنی في حين أن عنوان السيوطي أكثر شمولاً وأكبر إحاطة.

٦- إن اطلاع السيوطي على الآراء المختلفة المتعددة في هذه المسألة وإحاطته بمحاجع أصحابها يسر عليه ترتيب مادته ترتيباً يسهل على القارئ استيعاب الموضوع ويقوده بعنایة في متهاهاته. ويقدم السيوطي الاتجاهات الفكرية الرئيسية الثلاثة ممثلة في أعمال ثلاثة من العلماء؛ ولا يرتديم ترتيباً موضوعياً فحسب وإنما ترتيباً زمانياً كذلك على الشكل التالي :

للألفاظ. وقالوا لو لم تدل الألفاظ بذاتها على المعنى لكن وضع الألفاظ بإزاء معنى من المعنى وضعاً اعتباطياً لا قاعدة له فيعم الاضطراب.

ولقي هذا الرأي معارضة شديدة من جماعة من الباحثين الذين قالوا بأنه لو دلت الألفاظ بذاتها على المعنى لاستطاع كل واحد أن يفهم جميع اللغات لعدم اختلاف الدلالات الذاتية.

ويقول الدكتور إبراهيم أنيس : «ورث علماء العرب عن اليونان هذا النوع من التفكير... ومع أن معظم اللغويين من العرب لا يأخذون بهذا الرأي، نرى كثيراً منهم يربطون في مؤلفاتهم بين الألفاظ ومدلولاتها ربطاً وثيقاً يكاد يشبه الصلة الطبيعية أو الذاتية»⁽³⁷⁾.

وذهب الدكتور رمضان عبد التواب في كتابه *القيم (المدخل إلى علم اللغة)* إلى أن ابن جنی قد ارتضى هذا الرأي لأنّه عقب عليه بقوله «وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل»⁽³⁸⁾. ولكن من يقرأ هذه العبارة في سياقها يفهم من قول ابن جنی أن هذه النّظرة تشكل وجهًا من وجوه تفسير أصل بعض اللغة، وليس كل اللغة، لأن ابن جنی لا يتوصل إلى رأي حاسم في الموضوع فهو يقول بعد تلك العبارة مباشرةً ما نصه :

«واعلم فيما بعد، أنتي على تقادم الوقت، دائم الت نقيب والبحث عن هذا الموضوع، فأجد الدواعي والخواجل قوية التجاذب لي ... وذلك أنتي إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة، الكريمة اللطيفة ... قوي في نفسي اعتقاد كونها توقينا من الله سبحانه، وأنها وحي».

ثم أقول في ضدّ هذا ... فأقف بين تین الحالتين حسيراً، وأكثرها فأنكمي مكتوراً. وإن خطر خاطر فيما بعد يعلق الكف بـ أحدى الجهتين، ويكتفها عن صاحبها، قلنا به، وبالله التوفيق»⁽³⁹⁾.

بجميع الآراء ذات العلاقة بالموضوع سواء أدلّ بها مفسرون أو محدثون أو مؤرخون أو غيرهم. فتحت عنوان «ذكر الآثار الواردة في أن الله تعالى علم آدم عليه السلام اللغات» يسرد السيوطي أقوال مفسرين من أمثال وكيع وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن جزي، وأقوال مؤرخين من أمثال ابن عساكر صاحب (تاريخ دمشق)، وابن كثير صاحب (البداية والنهاية)، وابن ماكولا، وأقوال محدثين من أمثال أنس بن مالك والحاكم والبيهقي، وأدباء من أمثال محمد بن سلام الجمحي، وابن دريد، وعشرات غيرهم.

٤٦ ويحق لنا أن نتساءل عما إذا كان السيوطي قد أدلّ بدلوه هو مع الآخرين في هذه المسألة وأنصح عن نظره في أصل اللغة أم أنه اكتفى بسرد آراء العلماء من التقدمين والتأخرین دون أن ييدي برأيه الشخصي. نستطيع أن نستخلص موقف السيوطي من هذه القضية من الفقرات التي أوردها في آخر الفصل تحت عنوان فرعی هو «ذكر الآثار الواردة في أن الله تعالى علم آدم عليه السلام اللغات» حيث يقدم الحجج النقلية وخاصة تلك المستمدّة من القرآن الكريم والحديث النبوی الشريف، مما يكشف عن قناعته بأن اللغة توقف ووحى. وهذه طريقة غير مباشرة للتعبير عن رأيه. فهو هنا لا يقول كما قال ابن فارس بطريقة مباشرة «أقول : إن لغة العرب توقف»^(٤٤).

ولكن من يعن النظر في كتاب (المزهري) يجد أن السيوطي قد أعرب عن رأيه في هذه المسألة بطريقة مباشرة واضحة لا لبس فيها، فهو يفتح مقدمة الكتاب بالعبارات التالية :

«الحمد لله خالق الألسن واللغات، واضع الألفاظ للمعنى بحسب ما اقتضته حكمه البالغات، الذي علم آدم الأسماء كلها، وأظهر بذلك شرف اللغة وفضلها...»^(٤٥).

ابن فارس وابن جني وفخر الدين الرازي. وعندما يقدم رأي كل واحد منهم، يحدد اسم الباحث ويعين المصدر الذي نقل عنه. ويشير إلى بداية كلام ذلك المؤلف وإلى نهاية بكل دقة. كما يحدد هوية المتكلم الفكرية إن كانت ذات علاقة بالمسألة موضوع البحث، فيقول مثلاً :

«قال أبو الحسين أحمد بن فارس في (فقه اللغة) : ...»^(٤٦)

وعندما يتبعي كلام ابن فارس يقول السيوطي : «هذا كله كلام ابن فارس، وكان من أهل السنة»^(٤٧).

ويقول مثلاً عندما يقدم رأي ابن جني :

«وقال ابن جني في (الخصائص) وكان هو وشيخه أبو علي الفارسي معتزلين»^(٤٨) وعندما يتبعي كلام ابن جني، يقول السيوطي : «هذا كله كلام ابن جني»^(٤٩).

ولا يقتصر السيوطي على نقل أقوال العلماء بدقة وأمانة، وإنما يجمع الأقوال التي تصب في خانة واحدة والآراء التي تتفق في وجهة واحدة، ويلخصها للقارئ، فيقول مثلاً :

«وقال الإمام فخر الدين الرازي في (المحصول)، وتبعه تاج الدين الأرمي في (الحاصل)، وسراج الدين الأموي في التحصيل ما ملخصه»^(٥٠).

٤٧ ويستمر السيوطي في عرض آراء كبار اللغويين من أمثال عثمان بن أبي بكر بن الحاجب، والقاضي تاج الدين السبكي، ويعزز ذلك كله بآراء كبار الفقهاء من أمثال الغزالى والقشيري والزركشى وغيرهم.

ولا يكتفي السيوطي بإيراد آراء علماء اللغة والفقهاء في الموضوع وإنما يستثمر اطلاعه الواسع في مختلف العلوم وتجربه في التفسير والحديث فيأتي

الفصل المذكور وما ورد من تلخيص لبعض الأقوال، فإن جميع مادة الفصل منقوله بأكملها من مؤلفات العلماء الآخرين. وفي حالي ابن فارس وابن جني فإن السيوطي نقل فصلاً كاملاً من كتاب كل منهما.

ونستخلص من هذه الملاحظات أن السيوطي كان أميناً في البحث العلمي لم يسرق من أعمال غيره ولم يتخللها، ولعل مما يؤيد هذا الرأي ما عرف عن هذا الشيخ الجليل من أمانة وعفة وكرم في حياته العامة والخاصة. والأمانة كل لا يتجزأ. ويرى أن السلطان الغوري أرسل إلى السيوطي مرة خصياً وألف دينار، فأعنت الخصي ورد المال وقال لرسول السلطان : لا تعد تأتينا قط بهدية، فإن الله أغنانا عن مثل ذلك^(٤). ومن كانت له تلك العفة وذلك الكرم، لا تندبه إلى الأعمال العلمية للآخرين.

ومن ناحية أخرى، نستطيع القول إن السيوطي لم يكن على قدر كبير من الأصالة والإبداع والابتكار في التأليف العلمي وإنما كان يعتمد في معظم مؤلفاته على جمع أقوال المؤلفين وترتيبها بطريقة مناسبة. وهذا لا ينفي أن له مؤلفات أنشأها بنفسه مثل كتبه التي وصف فيها بعض رحلاته مثل (التحلة الزكية في الرحلة المكية) و(الاغباط في الرحلة إلى الإسكندرية ودمياط)، بل أكثر من ذلك فإن له شعراً وأرجوزات. ولكنه في مؤلفاته العلمية لا يعدو كونه جاماً ومرتبًا للمواد العلمية التي يحيط بها إحاطة تامة شاملة؛ فهو جامع واسع ومرتب عالم.

وهذه الاستنتاجات التي استخلصناها لا تعفينا من تعليل مسألتين : أولاهما، ادعاء السيوطي في مقدمات بعض كتبه أنه لم يسبق إلى ذلك النوع من التأليف سابق ولم ينسج على منواله ناسج ؛ وثانيهما، كثرة مؤلفات السيوطي بحيث تشجع هذه الكثرة على تصديق ما يدعوه مناؤوه من أنه سطا على مكتبة المدرسة الحمودية وانتحل كثيراً من كتبها لنفسه.

وتديجه هذه الافتتاحية لا يدل على حسن اختياره للحمدلة المناسبة لموضوع الكتاب فحسب، وإنما يكشف كذلك عن الأهمية التي يوليه لمسألة أصل اللغة وما يترتب عليها من نتائج أثناء بحث المسائل اللغوية الأخرى لاحقاً، وهذا أشار إليها في تصديره.

٦ - النتائج والخلاصة :

يتضح مما تقدم ما يأتي :

١) كان السيوطي مطلعاً على جميع ما كتبه العلماء العرب المتقدمون والمتاخرون مما له علاقة ببحث أصل اللغة مهمماً كان تخصص هؤلاء العلماء : اللسانين والفقهاء والمفسرين والمحدثين والمورخين. وهذا يدل على إحاطته التامة بالموضوع الذي يتصدى للكتابة فيه، ومعرفته الشاملة بمصادر البحث ومراجعه.

٢) إن السيوطي في هذا البحث من كتابه (المزهر) لم يتخلل أقوال غيره ولم يغير فيها قليلاً هنا وهناك ليس بها لنفسه، وإنما نقل أقوال العلماء في تلك المسألة بكل دقة وأمانة، فذكر الإسم كاملاً فيأغلب الأحيان، وأشار إلى المصدر الذي استقى منه القول.

٣) لم يقتصر عمل السيوطي على نقل مختلف أقوال العلماء في هذه المسألة، وإنما عمد إلى تجميع بعض الأقوال المتقاربة في فحواها وتلخيصها، كما عمد في حالات أخرى إلى اختيار الأهم من تلك الأقوال.

٤) لم يدل السيوطي برأيه بصورة مباشرة في أصل اللغة في هذا الفصل من فصول كتابه (المزهر)، ولو أنه صرخ به في خطبة الكتاب عندما حمد «الله خالق الألسن واللغات». وهو في هذا الرأي مجردتابع لجمهور الفقهاء وليس صاحب نظر مبتكر.

٥) فيما عدا العناوين الرئيسية والفرعية في

لقد شاعت طريقة الاقتصار على جمع أقوال المؤلفين السابقين وترتيبها في فترة ركود الحضارة العربية وجمودها واحتضار روح الإبداع وأضمحلاتها في الثقافة الإسلامية. ويرى الأستاذ فؤاد سزكين أن القرن التاسع الهجري هو بداية فترة الجمود والركود في الفكر العلمي العربي^(٥١). ولقد قمت بدراسة مقارنة لمنهجية كتاب مشهور يعود إلى تلك الفترة هو كتاب (نفح الطيب) للمقرئ التلمessianي في قسمه الخاص بلسان الدين بن الخطيب فوجدته يتبع منهجية مماثلة لمنهجية (المزهر)، إذ يقتطف فصولاً كاملة من مؤلفات ابن الخطيب وابن خلدون وغيرهما. ولهذا يمكننا النظر إلى منهجية السيوطي في التأليف على ضوء الطرائق السائدة في عصره، وليس بوصفها طريقة متعمدة للسرقة والسطو والاتحاح.

أما مسألة الفخر والزهو والماهاة الذي يتهمه مناوئوه بهما، فلا أحسبهما إلا من باب التحدث بنعمة الله عليه (أما بنعمة ربك فحدث)^(٥٢). وفي هذا يقول أحد محبي السيوطي، الدكتور أحمد الشرقاوي إقبال في مصنفه (مكتبة الجلال السيوطي) :

«والقارئ يحس في فخره ذاك طيبة وسذاجة، ويستشعر أنه من الفخر البريء الذي ينسلك في بابة التحدث بالنعمة، ويندرج في التمدح بالآء الله وإنعاماته»^(٥٣).

أما الشك الذي تثيره كثرة مؤلفات السيوطي، فينبغي أن نلتفت الانتباه أولاً إلى تباين الإحصاءات المتعلقة بمؤلفاته، فقد قال السيوطي عنها أنها بلغت ثلاثة كتاب (عدا ما غسله وتاب عنه)^(٥٤)، وذكر بروكلمان أنها 415 مصنفاً، وقال فلوغل أنها 560 كتاباً، واعتبر جميل العظم أن عددها 576 مؤلفاً، وحصرها الشرقاوي في 725 مصنفاً^(٥٥) وجعلها الخزندار والشيباني 981 كتاباً^(٥٦).

بالنسبة للمسألة الأولى، ندعو القارئ إلى إمعان النظر في ما قاله السيوطي نفسه وليس ما زعمه متقددوه. ففي مقدمة كتابه الذائع الصيت (المزهر في علوم اللغة) يقول السيوطي ما نصه : «هذا علم شريف ابتكرت ترتيبه، واحتضرت تنوعه وتبويه»^(٥٧)، ولم يقل «ابتكرته» أو «احتضرته»، وإنما انصب ابتكاره واحتراعه على ترتيب المواد الموجودة وتبويتها. والدليل على أن المقصود بـ «الابتكار» وـ «الاحتراع» هو «الترتيب» وـ «التبويب» هو ما ورد في تصدير (المزهر) الذي نقله السيوطي من ابن فارس في كتابه (فقه اللغة) وورد في آخر التصدير :

«ثم قال (أبي ابن فارس) : والذي جمعناه في مؤلفنا هذا مفرق في أصناف كتب العلماء المتقدمين، وإنما لنا فيه اختصار مبسوط، أو بسط مختصر، أو شرح مشكل، أو جمع متفرق. انتهى وتمثل قوله أقول في هذا الكتاب»^(٥٨).
وأحسب هذا واضحاً كل الوضوح.

وهذا يدل على أمانة الرجل وصدقه. فكتابه يمثل طريقة مبتكرة لترتيب وعرض ما توصل إليه علماء العرب المسلمين في ميدان علم اللغة، بحيث قدم خدمة للدارسين في عصره وفي العصور التي تلته. ومعظم الباحثين البارزين في الوقت الحاضر يفضلون الرجوع إلى (المزهر في علوم اللغة) مثلاً على الرجوع إلى (الصاحب في فقه الله)، لأن الكتاب الأخير يقدم وجهة نظر مؤلفه ابن فارس فقط في حين أن كتاب السيوطي يعرض مختلف وجهات النظر في المسألة الواحدة مرتبة ذكية، تيسر مهمة الباحث، وتساعده على الإلمام بالموضوع دون عناء الرجوع إلى عدد كبير من المؤلفات فقد بعضها، وهذه منهجية السيوطي وهذا حازت على الإقبال وحظيت بالانتشار.

أن السيوطى قد اعتزل الناس والفتيا والتدريس في أواخر أيامه معتكفاً في منزله متفرغاً للعبادة والتأليف، استطعنا أن ندرك لماذا استطاع أن يصنف هذا العدد الكبير من المؤلفات.

وخلاله القول إن الإمام جلال الدين السيوطى مؤلف اجتمع له جميع أدوات التأليف من قدرة على الدرس، واطلاع واسع على مختلف العلوم، وقابلية على العرض المنهجي مختلف وجهات النظر، وأمانه ودقة في النقل، ولكنه اعتمد على منهجية الجمع في عرض الآراء حتى لو تطلب ذلك العرض نقل فصول مطولة برمتها من المؤلفين السابقين، وهي منهجية كانت شائعة في العصر الذي اتسم بالجمود العلمي والركود الفكري واعتماد المؤلفين على شرح المؤلفات السابقة أو تلخيصها أو كتابة الحواشى عليها أو نقلها دون إبداع وابتكار.

ويبدو أن عدم ضبط عدد مؤلفات السيوطى على الرغم من تعدد المحاولات يعود إلى جملة من الأسباب في مقدمتها عدم ضبط عنوان هذه المؤلفات. فمثلاً إن العنوان الكامل لكتاب السيوطى الذي رجعنا إليه في هذا البحث هو (المزهر في علوم اللغة وأنواعها)، ولكن كثيراً من الكتاب يشير إليه بـ (المزهر في علوم اللغة) ويكتفى بعضهم بتسميته بـ (المزهر). فلو اختلط الأمر على باحث عجل لعد هذه العنوانين لكتب ثلاثة وليس لكتاب واحد. كما أن شهرة السيوطى وكثرة مؤلفاته شجعت بعضهم على نسبة كثير من المخطوطات المجهولة المؤلف إلى السيوطى إما لقرب أسلوبها أو زمانها من زمانه أو لغير ذلك من الأسباب. وزيادة على ذلك فإن بعض هذه المؤلفات لا يعدو كونه رسالة قصيرة قد لا تتجاوز بضعة أوراق. وإذا ما أضفنا إلى ذلك

الهوامش

- (1) أحمد الشرقاوي إقبال، مكتبه الجلال السيوطي (الرباط : دار المغرب، 1977)، ذكر له 725 مصنفا في حين أورد أحمد الحزندار و محمد إبراهيم الشيباني في كتابهما دليل مخطوطات السيوطي (الكويت : مكتبة ابن تيمية، 1983) 981 كتابا مخطوطا للسيوطى.
- (2) د. عبد الرحمن عبطة، مع المحبة العربية (بيروت : دار الأوزاعي، ط 2، 1984).
- (3) جلال الدين السيوطي، حسن الخاضرة (القاهرة : المطبعة الشرقية، ب ت) ج 2 ص 140.
- (4) جلال الدين السيوطي، نظم العقيان، المقدمة.
- (5) جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد جاد المولى وعلى محمد البعاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة : دار الفكر، ب ت) ص !.
- (6) السحاواني، ج 4 ص 65، كما ورد في مقدمة المزهر في علوم اللغة، ص 16.
- (7) جلال الدين السيوطي، الأشباه والنظائر في التحوى، تحقيق عبد الإله نبهان وآخرين (دمشق : مجمع اللغة العربية بدمشق، 1985) ص 27.
- (8) جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ص 35-8
- (9) انظر متلا كتابه المتبحج السوي والمنهل الروي في الطب النبوي وكتابه كشف الصلصلة عن وصف الرزللة، وغيرها.
- (10) د. شاكر الفتحام في مقدمته لكتاب الأشباه والنظائر في التحوى، المرجع السابق ص 3.
- (11) تشارلس دارون، أصل الأنواع، ترجمة إسماعيل مظہر (بيروت : مكتبة النهضة، ب ت).
- (12) Ernest Renane, *L'Origine du Language*.
- (13) William Dwight Whitney, *The life and Growth of Language* (New York ; D.Appleton & Co., 1875).
- (14) Otto Jespersen, *Language : Its Nature, Development and Origin* (New York, 1992), Chap. 21 : The Origin of Language.
- (15) Harry Hoijer, «The Origin of Language» in *Linguistics Today*, ed. A.A. Hil (New York : Basic Books, (1968) pp. 50-58.
- (16) Thomas Pyles, *The Origin and Development of the English Language*. (New York : Harcourt Jovanovich, inc., (1964) pp. 1-2.
- (17) Whitney, op. cit.
- (18) James B. Greenough & George L. Kittredge, «The Origin of Language». *Classics in Linguistics*, ed. by Donald E. Haydin, E. Paul Alworth and Gray Tate (New York : philosophical Library, 1967). pp 138-143.
- (19) د. علي عبد الواحد وافي، علم اللغة (القاهرة : دار النهضة، 1940) ص 110-112، وكذلك د. رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة (القاهرة : مكتبة الخانجي، 1982) ص 119-122.
- (20) G.L. Trayer, «Language», *Encyclopaedia Britannica*, 1950.
- (21) Charles Hockett and Robert Asher, «The Human Revolution», *Current Anthropology*, 5 (1964),pp 135-168.
- (22) نعتمد في تلخيصنا لها على تلخيص Hoijer، المصدر السابق.
- (23) Ibid, pp 56-57.

- (24) انظر مثلاً : رنيه تاتون وآخرون تاريخ العلوم العام، ترجمة د. علي مقلد (بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1990) ج 3 ص 552-555. وكذلك : Roger Lewin, «Secret life of the brain» in *New Scientist* (1992) no. 4, pp. 2-7.
- (25) د. عبد الحميد الشلقاني، رواية اللغة (القاهرة : دار المعارف بمصر، 1971).
- (26) سورة البقرة، الآية 30.
- (27) سورة الروم، الآية 22.
- (28) ابن فارس، الصاحبي، تحقيق السيد أحمد صقر (القاهرة : مطبعة البابي الحلبي، 1977) ص 7.
- (29) المصدر السابق.
- (30) ابن جني، الخصائص، ج ١، ص 44.
- (31) المصدر السابق، ويلاحظ أن كلمني (مرد) و(سر) من اللغة الفارسية.
- (32) ابن جني، الخصائص ج ١، ص 40-41.
- (33) السيوطي، المزهر، ص 16.
- (34) د. إبراهيم أنس، دلالة الألفاظ (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية، 1976) ص 64.
- (35) رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة، ص 112.
- (36) ابن جني، الخصائص، ج ١، ص 47.
- (37) المصدر السابق، ص 47.
- (38) السيوطي، المزهر، ص 8.
- (39) ابن فارس، الصاحبي، ص 6.
- (40) ابن جني، الخصائص، ص 40.
- (41) السيوطي، المزهر، ص 8.
- (42) المرجع السابق، ص 10.
- (43) المرجع السابق، ص 10.
- (44) المرجع السابق، ص 16.
- (45) السيوطي، المزهر، ص 16.
- (46) ابن فارس، الصاحبي، ص 6.
- (47) السيوطي، المزهر، ص 1.
- (48) محمد أحمد جاد المولى وعلى محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم، محقق المزهر، ص 18.
- (49) السيوطي، المزهر، ص 1.
- (50) السيوطي، المزهر، ص 6.
- (51) فؤاد سيرزكين، محاضرات في تاريخ العلوم العربية الإسلامية (فرانكفورت : معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، 1984) محاضرة حول «قضية أسباب ركود الثقافة الإسلامية» ص 182-167.
- (52) إقبال، المرجع السابق، ص 28.
- (53) السيوطي، حسن المعاشرة، ج ١، ص 144.
- (54) الشرقاوي إقبال، المرجع السابق.
- (55) أحمد الخزندار ومحمد الشيباني، المرجع السابق.